من أدباء الإسلام

من أدباء الإسلام:

محمد فريد وجدي

بقلم / د. غريب جمعة*

محمد فريد وجدي

من يا ترى يكون ذلك الرجل؟

إنه العلامة - الفريد - بحق الأستاذ محمد فريد وجدي[1].

العالم النحرير، والأديب الكبير، والباحث المحقق، والكاتب الموسوعي، والفيلسوف المسلم العالمي، الذي عاش حياته مجاهداً في صمت وصبر واحتساب، يُخرج للناس من ثمرات يراعه ما ينير البصائر، ويبث الطهر في السرائر، ويهدي الضال ويرشد الحائر.

فهيا بنا نتعرف على ذلك الرجل في هذه العجالة.

المَوْلِدُ والنَّشْأَةُ والدِّرَاسَة:

هو محمد فريد بن مصطفى وجدي بن علي رشاد، الذي ولد بمدينة الاسكندرية عام ١٨٧٥م ونشأ في أسرة لا يراها الرائي حتى يظن أن لها حظاً من نعمة وفضلاً من يسار. فقد جمع والده بين بحبوحة العيش، وعلو المنصب، حيث كان محافظاً للسويس.

وكثيراً ما يصرف يسار الآباء وعلو مناصبهم الأبناء عن الجد والسهد في طلب العلم، ولكن فريد وجدي كان على النقيض من ذلك منذ صباه الباكر، حيث كان مطبوعاً على حب الاطلاع والعلم والبحث والدراسة.

وقد تدرج في مراحل التعليم حتى حصل على البكالوريا (الثانوية العامة الآن) ثم انتسب لكلية الحقوق مدة عامين. ثم انقطع عنها لأنه رأى البقاء فيها ينتزعه من العلوم الأخرى التي مست شغاف قلبه، وأصبح لا يطيق الصبر على هجرها كما لمستهام بها صباً.

وبعد حصوله على البكالوريا عمل موظفاً في (قلم استبدالات الأحكار) بديوان عام الأوقاف (وزارة الأوقاف الآن) بالقاهرة. على الرغم من أنه لم يكن من سكانها. وكان راتبه في ذلك الوقت أربعة جنيهات شهرياً !!! على حين أن رئيس القلم لم يزد راتبه على عشرة جنيهات!!!.

وكان من السهل على موظفي ذلك القلم الإثراء العاجل والفاحش بالوسائل غير المشروعة خاصة في تلك الفترة التي لم تصل فيها نسبة التعليم والوعي إلى ما وصلت إليه الآن. ولكن أحداً من أولئك الموظفين لم يفعلها لمراقبته ربه، وخشيته أن ينبت لحمه أو لحم أسرته من سحت، فيكونوا وقوداً لجهنم والعياذ بالله.

ولكن فريد وجدي أحس بالوظيفة حجاباً مستوراً بينه وبين ما هام به من العلوم والمعارف التي وقف حياته عليها فودعها إلى غير لقاء.

وقد أعجب به الخديو عباس ، فألحقه بوظيفة محرر بالسراي، ولكنه ضاق ذرعاً بالوظيفة؛ حتى ولو كانت بسراي تطمح إليها نفوس الكثيرين.

لذلك كان حظ هذه الوظيفة منه كحظ سابقتها؛ فلم يمكث بها إلا قليلاً؛ لقلة صبره على أغلال الوظائف، ففك أغلاله وهرع إلى ميدان البحث والاطلاع والتأليف وفي تلك الفترة استأثرت رحمة الله بوالده وترك له ولأخوته ستين فداناً بناحية الصالحية بمديرية (محافظة) الشرقية، وثمانين فداناً بناحية بهوت بمديرية الغربية (أصبحت في الوقت الحالي من أعمال محافظة الدقهلية)، ومنزلاً كبيراً بمدينة الاسكندرية وأنفق ثمنه في بناء منزل جديد بالقاهرة.

ولقد قام مقام والده خير قيام، في رعاية والدته وشقيقاته الأربع، وشقيقه الصغير، الأستاذ أحمد وجدي، الذي أصبح من أقطاب المحاماة بمدينة الزقازيق فيما بعد، وقد رزىء رزءاً كبيراً بوفاة هذا الشقيق حينما كان ضيفاً عليه بالقاهرة في إحدى الزيارات.

أديبنا أحس بالوظيفة قيداً وسداً بينه وبين الأدب

(*) طبيب وأديب مصري، نشرت له عدة دراسات وأبحاث في الطب والأدب في عدد من الدوريات العربية والإسلامية.

اشْتِغَالُه بالصَّحَافَة:

بـدأ -رحمه الله- ذلك النشـاط حين أصـدر جريدة «الـدستور» حوالي عام ١٩٠٦م، وكـان مقرها الدار التـي تشغلها المدرسة البرهـانية للبنـات، وهي تقع بين وزارة المعـارف القديمـة (المدرسة الخديـوية الثانوية الآن) وبين دار الجمعية الخيرية الإسلامية.

وقد اتخذ من الطـابق الأول داراً للجريـدة ومقراً للمطبعة، ومـن الطابق الثـاني مسكناً لـه ولأسرته وفي تلك الأيـام نـزح الشـاب عبـاس محمـود العقـاد من أسوان -مسقط رأسه- إلى القاهـرة؛ استجابة لهواتف شغفه بـالأدب، فكانت جـريدة «الـدستور» مـدرسته الصحفية الأولى، وكـان الأستاذ فـريد وجـدي هو أستـاذه الأول في هذه المدرسة.

يقول العقاد عن لقائه به أول مرة:

«كنت أراه أحياناً في طريقي، ولا أعرف من هو بين غمار الناس، على علمي ببعض آثاره، وسماعي ببعض أخباره، ومنها قفشات الأدباء (أولاد البلـد) أنـه يعيش فيما وراء المادة في عطفـة من عطفـات عـالم الروح!. فلما رأيتـه لأول مرة بعـد إعلانه عن إنشـاء صحيفة الـدستور أسفت لما فـاتني من الشعور بتلك الأعجـوبـة التي كنت أشهدهـا كما يشهدها غيري من عابري الطريق ولا يشعرون بها». أ هـ

إيثار الحق على المنفعة الذاتية:

ربما لم تعرف الصحافـة في مصر كاتباً مثل الأستـاذ وجدي آثر الحق على المنفعة الذاتية، مهما كلفه ذلك من تضحيات، ومواقفه في تلك الفضيلة أكثر من أن تحصى، نذكر منها:

حينما اختلف الخديو مع السيد توفيق البكري نقيب الأشراف وغضب عليـه، كتـب -رحمه الله- يـؤيـد السيـد البكـري. وأحب البكري أن يكـافىء جريـدته، فأرسل اشتراكـه مع شخص يستفسر عن أحوال الجريـدة المالية حتى يمد إليهـا يد العون. فكـان جواب صـاحبهـا: إيصـالاً (سنـداً) بقيمـة الاشتراك، ورد بقيـة المبلغ مع خطاب شكر يمنع من الاسترسال فيما وراء الاشتراك والسؤال.

وإبـان عضـويتـه للحـزب الـوطني اقترح مصطفـى كـامل (المؤسس) أن يوجه الحزب خطاباً إلى وزير خـارجية بريطانيا ووافق الأعضـاء على ذلك. ولكن الأستـاذ وجـدي اعترض على الاقتراح ورأى أن يوجـه الخطاب إلى وزارات الدول جميعـاً، حتى لا يكون في تخصيص بـريطـانيـا شبـه اعتراف بـوضع متميـز لها في مصر. وأصر مصطفى كـامل على رأيـه، فتنـاول وجدي هـذا الخلاف في الـرأي، وكتب مقـالين يؤيـد بهما وجهـة نظره، فـانفض أعضـاء الحزب من حول جريدته، فمنيت بالتوقف والكساد.

وفي هذا الوقـت العصيب بالنسبة للجريـدة حدث الانقلاب الدستوري في الـدولة العثمانية، واحتاج حزب تركيـا الفتاة إلى كاتب إسلامي مشهور في العالم الإسلامي للـدعوة له والترويج لأهدافه في إدماج العـرب في القومية التركية. وجـاء الوسطاء يسـاومـون وجدي على مـرتب ضخم، شريطة أن يحذف شعـار صحيفتـه وهو: لسـان حال الجامعة الإسلامية. ولـه أن يكتب ما يشاء بعد أن يغير صبغتها الظاهـرة. وتدخل الخديـو بنفسه، وعرض عليـه عروضـاً سخية من جانبه، ولكنه رفض ذلك تماماً -وهو مثقل بالديون وجريدته مهددة بـالتوقف- لأنـه خشي أن يؤدي قبـولـه إلى الانحراف بـه عن الحق الذي يعتنقه، ويبذل في سبيله النفس والنفيس.

ومـا هي إلا أسـابيع حتى وقع المحظـور، وتـوقفت الجريـدة لعجزهـا عن شراء الورق، وكـان باستطاعتـه أن يغلقها ويترك آلات الطباعة لسداد ديونه. ولكنـه طلب جميع دائنيه للاجتماع به، وعرض عليهم كتبه التي طبعهـا على نفقته الخاصـة؛ فهبط ثمن الكتاب إلى عشر قيمتـه !! وعلى الـرغم من ذلك بـاعهـا بـذلك الثمن البخس ليسدد ما عليه من ديون وحقوق للعمال والموظفين، حتى إذا اطمأن إلى سداد آخر مليم عليه أعلن إغلاق الدستور!!

ولكنـه استبقى المطبعـة وأدوات الطبـاعـة، وانتقل بأسرتـه ومطبعتـه ومكتبتـه إلى مسكنـه الجديـد بشـارع الخليج. وجعل «البـدروم» للمطبعـة وعمالها، واتخذ من الطابق فـوق البدروم مسكنـاً له ولـزوجه، أمـا الـوالدة والشقيقـات فقد اختصهن بالدور الثاني الأعلى.

ضرب فارسنا بسهم وافر عندما اتجه إلى تأمل معاني كتاب الله

ومن هـذه الدار أصـدر مجلة «الحياة» وكـانت مجلة شهرية، وكـان ذلك عام ١٩١٤م ثم شرع في تأليف «دائرة معارف القـرن العشرين» وأصدرها في أجزاء متتـابعة، نصف شهرية، غير معتمـد على أحد إلا على الله، ولا مستعين بأحد إلا به تبـارك وتعالى، على الـرغم من أن هذا العمل يحتـاج إلى مجمع من الرجال، ولكن توفيق الله وعونه لعبده يصنع المدهشات.

وقـد اختار مـوظفاً صغيراً لـلإشراف على إرسـال أجزاء هـذه الدائرة وبقية مؤلفاتـه إلى من يطلبونها. وكان هذا الموظف -ويدعى مصطفى العلـوي- مغـرمـاً بـالتردد على مجالسـه كل مسـاء لقـرب مسكنه منه.

وأدرك الأستاذ وجـدي رقة حاله وضيق ذات يـده، فضلاً عن تظاهره باحتراف القلم وصناعة الشعر، ولكنه لم يكن له إنتاج يذكر. وقد حسبه الأستاذ أديباً فـاختاره لهذا العمل الكتابي عنده براتب لا بأس به في تلك الأيام. وقربه منـه وأغدق عليه، خاصة بعد أن كتب الله لمؤلفاته الذيوع والانتشار، وزاد عدد المشتركين فيها، والراغبين في اقتنائها.

ويضرب فارسنا بسهم وافر في ميـدان آخر فيتجه إلى كتاب الله

فهماً وتفسيراً ويكتب فيه مؤلفاً ضخماً بعنوان: «صفوة العرفان في تفسير القرآن».

وقد انتشر ذلك التفسير في حينه وإلى اليوم انتشاراً واسعاً حتى وصل التركستان وأفغانستان وغيرها من البلاد الإسلامية.

وقد طبعته دار الشعب بالقاهرة بعنوان «المصحف المفسر» مع مقدمة قيمة في التفسير كتبها رحمه الله بقلمه.

ولا يزال في الجعبة الكثير فاتجه إلى ميدان الأدب الهادف فكتب «الوجديات» في صورة كتيبات أسبوعية من الحجم الصغير، وهي أشبه بالمقامات في أسلوبها، في كل كتيب مقامة قائمة بذاتها. وقد تناول في كل وجدية مرضاً اجتماعياً، أو عيباً أخلاقياً، بالنقد البناء الهادف، والتوجيه السديد. فحظيت برواج لم تحظ به مثلها في ذلك الوقت.

الحَنينُ إلى الصَّحَافَةِ مرَّةً أُخْرى:

وبعد إقامته زهاء عقدين من السنين في شارع الخليج المصري إنتقل إلى شارع عمر بن عبد العزيز بحي المنيرة، وقد عاوده الحنين إلى الصحافة مرة أخرى قبل ذلك بسنوات قليلة، وخاصة بعد صدور التصريح المعروف بتصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ من الميلاد، والذي ترتب عليه تكوين مجلس نيابي لمصر تُمثل فيه الأمة بنوابها. فأعاد جريدة «الدستور» كما أصدرها أول مرة، وأستأجر لهذا الغرض داراً كبيرة في نهاية شارع خيرت، قرب ميدان «لاظ أوغلو» واتخذها مقراً للمطبعة والإدارة والتحرير.

عندما أعلن صيحته الشهيرة!

«الدستور يطالب بالدستور»!

وقد دفعه وفاؤه للعاملين معه أن يستدعي رئيس العمال الذي كان يعمل في الدستور في عهدها الأول. وكان يعاونه على التحرير الأستاذ مصطفى المويلحي، والشيخ أبو رية، والأستاذ عبد الحميد جلال، وكان مصطفى العلوي لا يزال في خدمته فضمه إليهم.

ولكنه حين أيقن أن مصطفى هذا دعيّ فصله من جميع أعماله -لأنه لا يحب هذا النوع من الناس - وقد كافأه عن سني خدمته معه بعطاء جزيل، ولكنه -غفر الله له- رد على تلك المكافأة بمشاغبات قضائية عديدة بين دور المحاكم لم تسفر عن شيء لأنه لا حق له فيها.

وَكَانَ الابتلاءَ:

لم يكن فارسنا يعيش بمعزل عن قضايا وطنه، فجعل من الدستور ميدانه الذي ينازل فيه تلك الصراعات الباغية، والتيارات العائية. لذلك انتشرت جريدته أكثر من انتشارها الأول. وكانت هناك لجنة في ذلك العهد مكونة من ثلاثين عضواً، وقع عليهم الاختيار لوضع دستور لمصر، وكان من رأي صاحب جريدة الدستور أن هذه اللجنة قد تقدم الخير لوطنها.

ولكن زعماء حزب الوفد كانوا يسلقون هذه اللجنة بألسنة حداد، لأن تصريح ٢٨ فبراير لم يأت على أيديهم، وإنما جاء على يدي عبد الخالق باشا ثروت.

وقد تراءى لصاحب الدستور أن تلك اللجنة تؤدي عملها في أناة، ولكن ببطء، فكتب افتتاحية أحد أعداد جريدته بعنوان:

«الدستور يطالب بالدستور»

ولم يكد يظهر ذلك العدد في أيدي الباعة، حتى زلزلت الأرض زلزالها، وقال الوفديون مالها؟ خصوصاً أن صاحب المقال كان هو وشقيقه من أقطاب الحزب الوطني الذي أسسه الشاب مصطفى كامل -يرحمه الله-.

وقد أدرك الوفديون قيمة رأي ذلك الرجل الذي لا يستهان به ولا بقلمه، فهبوا لمحاربة جريدته محاربة مادية شرسة حققت مأربهم، فخفتت أصوات الباعة في المناداة عليها، حتى كاد القراء ينسون اسمها، فضلاً عن مبادىء صاحبها.

ولكن فارسنا ما لانت قناته، ولا فلت شباته، فأخذ يجاهد بماله لإصدار جريدته التي أنفق عليها مبالغ طائلة، دون أن يحصل على دانق من إيرادها.. ولكنها المبادىء. وما هي إلا بضعة أشهر حتى توقفت الجريدة، وخفت صوتها، بعد أن كبدته خسائر مالية فادحة، وبعد أن ضاعف مكافآت العاملين معه من محررين وعمال طباعة، وكانت هذه إحدى سجاياه الحميدة.

وأَمَّر خَالدٌ نَفْسَه:

لا شك أن هذا الابتلاء كان شديد الوقع على رجل مثل الأستاذ / وجدي، فعزفت نفسه عن العمل الصحفي والأدبي، وتخلى عن المطبعة وما يتصل بها، وأخلد إلى الراحة. لذلك استأجر دارين في شارع عمر بن عبد العزيز، اتخذ من الأولى مسكناً لوالدته وشقيقاته، مع تخصيص الطابق الأول لاستقبال زائريه ومريديه -وهم كثر- عند اختلافهم إليه مساء كل يوم.

واتخذ من الدار الثانية مسكناً له ولزوجه، وكأنما كانت تلك الفترة بمثابة إعداد للمهمة الجليلة التي ستلقيها الأقدار على عاتقه، كأنها بمثابة عوض من الله عز وجل.

لقد رفعته مؤلفاته ودراساته وأبحاثه إلى قمة المجد والتبجيل والاحترام في الأوساط العلمية وأولها الأزهر الشريف. وينشر الإمام الأكبر شيخ الأزهر في ذلك الوقت فضيلة الشيخ مصطفى المراغي كنانته يبحث عن شخص يتولى رئاسة تحرير المجلة التي تصدر باسم الأزهر فلم يجد أكفأ من الأستاذ محمد فريد وجدي لهذه

المهمة الجليلة، فاختاره رئيساً لتحريرها، وكانت تسمى فيما قبل «نور الإسلام». فقفز بها قفزات هائلة، حيث أعطاها أقصى جهده المبذول، وعلمه الموصول، فصدرت في ثوب عصري، ولكنه لا يند عن أصول الإسلام. وحسبه أنه أول من أدخل فيها باب الترجمة من و إلى اللغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، فلقيت رواجاً منقطع النظير، عند الشعوب الإسلامية التي تتكلم هذه اللغات.

وظل رحمه الله يضطلع بمهام رئاسة تحرير هذه المجلة الغراء زهاء عشرين عاماً (١٩٣٣-١٩٥٢)، ثم اعتزلها مختاراً، مؤثراً الراحة حيث قارب الثمانين من العمر!!

ولا شك أن فترة رئاسته لتحرير مجلة الأزهر الشريف جديرة بالدراسة والتحليل، ولعل الله يوفق بعض الباحثين والدارسين لمثل هذا العمل الذي يخدم الدعوة والصحافة الإسلامية.

أَخْلاَقُه وَسَجَايَاه:

كان رحمه الله لا يزاحم الناس ولا يختلط بهم كثيراً مع دماثة خلقه وبشاشته ولين عريكته، فقد خبرهم وعرف كيف تتفاوت مستوياتهم الأخلاقية. وقليلاً ما كان يلبي دعوة لاجتماع خاص أو عام مهما يكن شأن الداعي أو شأن الاجتماع. وكان قليل الأصدقاء لندرة الخل الوفي، على الرغم من أن مجلسه يزدحم بعشرات المريدين والزائرين في كل أمسية يقيمها.

أما عمله فهو أحرص ما يكون انتظاماً فيه و إتقاناً له، يبدأ العاشرة صباحاً وينتهي الثانية بعد الظهر. ونظراً لكثرة زواره من أفراد ووفود من شتى أنحاء العالم الإسلامي، فقد كان لا يكتب في المساء إلا قليلاً.

وكان السير على الأقدام هو رياضته المحببة إليه قبيل الأصيل كل نهار.

أما عن سموه الخلقي والروحي فقد كان في عزلة تشبه عزلة النساك، علياً كل العلم بالتحليل والتحريم، اكتفى في طعامه بالنبات فقط -ولكنه لم يحرم اللحوم على أحد- واجتنب الولائم التي يدعى فيها إلى طعام غير طعامه الذي اختاره لنفسه.

أخذ نفسه بسمت الأولين من السلف الصالح، فاجتنب كل بدعة من بدع الضلالة أو الجهالة التي ينكرها الدين، ولم يكتف بالاجتناب فقط، بل جهر برأيه في استنكارها يوم صمت الصارخون من الناطقين.

وقد مر بك بره بأسرته ووفاؤه للعاملين معه و إيثاره للحق على المنفعة الذاتية مهما كانت قسوة ظروفه المادية.

أما عن أدبه مع الناس فقد كان رحمه الله ينهض واقفاً إذا دخل عليه أحد عمال المطبعة، أو الساعي في مجلة الأزهر أو حتى طفل صغير. لذلك كان أدبه مضرب الأمثال.

وقد عاتبه في ذلك بعض أصدقائه من ذوي الجاه، فأجابهم في قليل من حدة الغضب:

لا قدرة لي على تغيير ما نشأت عليه من العادات والتزمته عشرات السنين!!. وماذا يضيركم إذا نهضت واقفاً عندما يحدثني أحد العمال.

وكان لا يضيق صدره بنقد مهما كان عنيفاً، ولا برأي يخالف رأيه، بل كان ينشر الآراء المخالفة لرأيه مهما كانت قسوتها، ثم يقوم بالرد عليها بأسلوب يجبر مخالفه على احترامه .

وتأمل ما كان يكتبه للمشتركين إذا تأخروا في سداد اشتراكاتهم:

المرجو تسديد الاشتراكات حرصاً على كرامة العلم!!

ومن أراد المزيد عن هذه الشخصية العالمية فليقرأ كتاب الأستاذ الكبير أنور الجندي (محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين). وقد حدثني الأستاذ أنور أن هذا الكتاب كان من جزأين كبيرين وفاء بشيء من حق الأستاذ فريد وجدي ولكن لظروف خارجة عن إرادته تم اختصار هذين الجزأين في أقل من جزء واحد!!.

مؤلفاته وآثاره:

لم ينجب -رحمه الله- أولاداً و إنما أنجب علماً ينتفع به -إن شاء الله-. فقد ترك مجموعة من المؤلفات تعتبر كنوزاً نادرة من كنوز العلم والمعرفة. منها:

١ - الإسلام في عصر العلم (مجلدان).
٢ - ما وراء المادة (مجلدان).
٣ - تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية.
٤ - الحديقة الفكرية في إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية.
٥ - المرأة المسلمة في الرد على المرأة الجديدة لقاسم أمين.
٦ - نقد الشعر الجاهلي لطه حسين.
٧ - على أطلال المذهب المادي.
٨ - الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان.
٩ - كنز العلوم واللغة، وهو من أنفس كتبه.
١٠ - كتاب المعلمين في علم النفس والتربية.
١١ - المدنية والإسلام (مترجم إلى الفرنسية).
١٢ - المصحف المفسر مع مقدمة قيمة في التفسير، وهو من أوسع

هذا الكاتب تفرّد في حياته العامة والخاصة .. وكان نعم الكاتب الذي يقتدى به

المصاحف انتشاراً.
١٣ - دائرة معارف القرن العشرين (١٠ مجلدات).
١٤ - الوجديات التي مر ذكرها.

هذا كله عدا ما دبجه يراعه في جريدة الدستور ومجلات كثيرة مثل: الحياة، والبريد الإسلامي التي كان يكتب افتتاحيتها حتى وفاته وقد حدثني السيد المهندس/ محمد توفيق أحمد أنه كان يذهب إليه في مكتبه بمجلة الأزهر ليأخذ هذه الافتتاحية، فيطلب له فنجاناً من القهوة ثم ينشغل عنه بالكتابة فيظن المهندس محمد توفيق أنه يكتب رسالة أو يوقع أوراقاً، فإذا به يكتب الافتتاحية المطلوبة بمجرد أن ينتهي من إحتساء القهوة!.

ومجلات وصحف أخرى مثل: مجلة المجلات العربية، المقتطف، الهلال، الأهرام، كل شيء، المعرفة، الأخبار، الرابطة العربية، الرسالة. كما شارك في كثير من المؤتمرات العلمية بأبحاثه القيمة التي كان يشار إليها بالبنان.

يقول الأستاذ عباس العقاد عن طريقته في الكتابة[٢]:

«كان سريع النظم للشعر، كما كان سريع النسج للنثر البليغ، وإن لم يكن يشتغل بنظم الشعر في موضعه من قصص الخيال. ولو كانت طواعية النظم للناظم آية الملكة الشعرية لكان فريد وجدي في طليعة الشعراء المطبوعين، ولكن سهولة نظمه كسهولة نثره، كلاهما دليل على بساطة في الطبع سلمت من العقد المركبة، وتقابلت فيها الأعماق والظواهر، بغير حجاب من خفايا النيات وعوج الأهواء، فلا تشق عليه سلاسة التعبير ولا سلاسة التفكير».

العقـــــاد

واسْتَرَاحَ الفارِس:

وكما أنه لا بد للشمس من الغروب فقد آذنت سنوات عمره بالغروب بعد هذه الحياة الحافلة الطويلة. وفي اليوم الخامس من فبراير ١٩٥٤م انتزع الموت هذه الشخصية العالمية الفذة التي تمثلت فيها العصامية العلمية والأخلاقية بصورة لم تشهدها مصر في أية شخصية أخرى، ورحل عن دنيانا في صمت أيضاً.

يقول الشيخ عبدالله المزروع[٣]:

«أنى لعلمي أن يفي لفريد وجدي حقه، فقد كان أمة وحده، بعلمه وفضله وجهاده في سبيل الله، وهو من أجل علماء مصر وأفذاذها القلائل، مات رحمه الله في صمت، ولم يسر في جنازته سوى أفراد قلائل، وهو صاحب المؤلفات النادرة، وصاحب دائرة المعارف وغيرها. رحمه الله رحمة الأبرار، وعوض الأمة الإسلامية خيراً».

أنور الجندي

وخير ما نختم به الحديث هو قول تلميذه الأديب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد عنه[٤]؟

«محمد فريد وجدي: هو فريد عصره غير مدافع!!. وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتها وبليت، وأصبحت حروفاً بغير معنى. ولطالما قيلت في عشرات من حملة الأقلام في عصر واحد، وكلهم فريد عصره!. وكلهم واحد من جماعة تعد بالعشرات، فلا معنى لها في باب العدد ولا في باب الصفات، ولا سيما صفات الرجحان والامتياز. إلا أنا نقولها اليوم عن محمد فريد وجدي لنعيد إليها معناها الذي يصدق على الصفة حرفاً حرفاً. ولا ينحرف عنها كثيراً ولا قليلاً في لغة المجاز، فقد عرفنا في عصره طائفة، غير قليلة من حملة الأقلام ورجال الحياة العامة، فلم نعرف أحداً منهم يماثله في طابعه الذي تفرد به في حياته الخاصة أو العامة، وفي خلقه أو تفكيره، وفي معيشته الروحية. وأوجز ما يقال عنه في هذه الحالات جميعاً: أنه لم يخلق في عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود في سيرته كما يتقارب في سيرة هذا الرجل. نعم الفريد حتى في لغة الجناس لأن اسمه فريد، والفريد حتى في عزلته عن الناس. رحم الله ذلك القلب الطهور، وذلك الروح الكريم، وذلك الخلق الفريد. إن يكن اليوم لا يذكر حق ذكراه فما هو بالخمول ولا هو بالقصور عن حق الخلود، ولكنه يعيش في عزلة من دنيا التاريخ كما عاش أيامه كلها في عزلة من دنيا الحياة» أ هـ.

الهوامش

(١) تعرفت على هذه الشخصية الجليلة من خلال تلميذه المخلص الداعية الإسلامي الكبير السيد المهندس محمد توفيق أحمد مؤسس دار تبليغ الإسلام وصاحب ومدير مجلة البريد الإسلامي الذي صاحبته أكثر من عشرين عاماً، حتى أحسن الظن بشخصي المتواضع فعهدِ إليّ بالإشراف على مجلته زهاء سبع سنوات إبان مرضه في أخريات حياته التي بلغت تسعين عاماً قضى ثلثيها في الدعوة إلى الله تحت شعاره الذي وضعه لنفسه ولم ينحرف عنه طيلة حياته وهو: إعمل لبراك الله وحده. ولم يضيع الله جهده سدى فقد دخل الإسلام على يديه أكثر من ٥٠٠٠ (خمسة آلاف شخصية أوروبية وغير أوروبية!!). وملفات هذه الشخصيات مودعة لديه.
(٢) مجلة البريد الإسلامي العدد ٢٤٨-٢٥٠ (شعبان - شوال ١٣٨٢هـ).
(٣) الشيخ عبدالله المزروع: وصايا أساطين الدين والأدب والسياسة للشبان -دار المنارة للنشر والتوزيع. جدة - الطبعة الثانية - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ص٨٧.
(٤) مجلة البريد الإسلامي ٢٤٨-٢٥٠ شعبان - شوال ١٣٨٢هـ.

صَرخَةٌ من أعماق سراييفو

عبدالله بن ثاني الرويلي

سقـاك غيـث الحيـا يـا أرض أمتنـا ... فقـد سئمنـا حيـاة الشَّجْب والخُطَبِ

ذقنـا المرارة في عَيش ينغِّصـه ... ظلمُ البغـاة وذلُّ السـادة النجب

فقـد شربنـا كـؤوس الموت مترعـةً ... وهيكلُ الـذل يعلـو أشرف النسب

يـا حسرة في فـؤادي كيف أكتمهـا ... والـدمع قـد ذاب في عيني من النُّـوَبِ

كيف العـزاء وذاك الجرح منصـدع ... وسيرة المجـد أضحت سيرة اللعـب

في كل منتجع جـرحٌ يـؤرِّقنـا ... وجحفلُ الشرك في عـز وفي طـرب

كنـا أبـاةً وعينُ المجـد تـرمقنـا ... رايـاتنـا في سماء النصر كـالشهب

وجنـد (أحمدَ) في الهيجـاء مـا وهنـوا ... عَـرَمْـرَمٌ في اجتيـاح الشرك كـاللهب

شُكْسٌ قَسـاورة في كـل معترك ... تقلـدوا الأُفْقَ إجـلالاً مـدى الحقب

سل عصبـة الشرك في بـدر وفي أحـد ... والسمـرُ تهتـزُّ في الإيمان مـن غضب

والبيـضُ سُلَّتْ مـن الأغماد مُسْعَـرةً ... وفي العجـاج صهيـلُ الخيل لم يغـب

وفي حُنَيْنٍ ويـومَ الفتـح ألـويـةٌ ... تُسـابـق الموتَ لم تكسـل ولم تَهبَ

سل عصبـة الشرك في اليرموك مـا فعلت ... في لمحـة الطـرف قـد زالت ولم تـؤب

بيـارق المجـد في حطّينَ خـافقـة ... ووصمـة العـار تعلق جبهـة الصُّلُب

فـاهتـزت الأرض من شـوق ومن فـرح ... ومـــوكـبُ النصر من قُطْـب إلى قطب

فجـــر يبـــدِّد ظُلْمَ الشرك ملتهبـــاً ... يجتـــاح ليـــلاً عنيـــداً لاذ بـــالهرب

بـــالأمس ننسـج آمـــالاً مـــرصَّعـــةً ... واليـــوم ننسج أكفـــانـــاً مـن النَّصب

تشكـــو «سراييفـــو» ظلم الصرب في ألم ... تجرجـر الصـوت مخنـوقـاً من التعب

تَمرُّ أسئلـــــــة تحبـــــو على مَهَـل ... في ليلـة من أزيـــر الغـدر في صخب

يضيع فيهـا الصـدى خـرسـاءَ مـرعبـةً ... تكسـو الفـراغ فيكسـوهـا من الـرهب

أصغى السكـون بها والـريـح تـوحشهـا ... والـــروح تخفق كـــالأقمار في السحب

وغُـــرَّةُ الطهـــر في أدران شِرذِمـــةٍ ... مهتـوكـة العـرض في أحضـان مغتصب

فترفع الصـــوت في الآفـــاق مُعلنـــةً ... تبثُّ شكـوى لكـل الغـرب والقـرب

صبحي كفيفٌ وســوط الليل يجلـدني ... والقيـــــدُ يُثْقلني في كـف مستلـب

رُدُّوا عليّ رداء الفضـل في صـــــور ... فصيحـة النطـق إبـداعـاً من الـذهب

لا تنكـــر العين ظلم الصرب مـن رَمَـدٍ ... وقـد يطيب العمىٰ في هيئـة الكـذب

شريعـــة الغـــاب والسمُّ الـــزعـــاف بها ... تشكـــو إليهـا ومنهـا غـايـة الكـرب

مصيرُنـــا في يـــد الأعـــداء مُـــرتَهنٌ ... ونستجير من الـــرمضـــاء بـــاللهب

يـــا أمتي، أمـــةُ التضليل واحـــدة ... والعـــزُّ في الـــدين والهنـــديـــة القُضُب

مسرحيـــة:

ضجة في مدينة الرقة

بقلم/ محمد الحسناوي*

المشهد الأول

(الزمان: قبل غروب الشمس. المكان: ساحة المرجة في مدينة دمشق. يبدو منها برجها المعروف في الطرف الأيسر من المسرح. في الطرف الأيمن يبدو مرآب سيارات «دمشق - حلب»، مشهد سيارة «باص» كبيرة ينزل منها المسافرون القادمون من حلب. رجال عابرون. شرطي. رجل في الأربعين ينزل من السيارة بعد أن سبقه في النزول عدد من المسافرين. بيده صرّة ثياب. علامات التعب بادية عليه. يخطو خطوات، ثم يتفحّص صدره. لا يجد شيئاً. يتفحص جيوبه. يرجع إلى السيارة بسرعة، يبحث عن شيء مفقود فيها. يسأل المسافرين. يسأل سائق السيارة، يسأل معاونه. ينفي كلّ منهم أنه وجد شيئاً)

أبو محمود: نقودي يا ناس. نقودي ضاعت. نقودي سرقت. ثلاثون ألف ليرة سورية يا ناس، ضاعت. والله ليست كلها ملكي. والله معظمها دَيْنٌ. أريد أن أشتري سيارة أسترزق بها، يا ناس. يا موحدين. حتي هويّتي الشخصية سرقوها.

رجل عابر: سلّم أمرك إلى الله.

أبو محمود: صدقت. سلّمت أمري إلى الله. الحمد لله على كل حال. لكن الهوية الشخصية؟

عابر٢: أحمد ربك أنك وصلت سالماً.

أبو محمود: نعم. الحمد لله أنني وصلت سالماً. كم تعرّضت للموت في حياتي، ونجّاني الله تعالى، البارىء المصّورُ، مقدّرُ الأقدار والأعمار. يا رب، سلمت أمري إليك. يا ربّ أعنّي على العودة، إلى أهلي.

شرطي: ابحث عن أحد معارفك، أحد أبناء بلدتك يساعدك على العودة إلى بلدك. وكل صعب يهون.

أبو محمود: أنا غريب. لكن كل صعب يهون بإذن الله. الحمد لله على كل حال.

المشهد الثاني

(الزمان: وقت الفجر، قبل طلوع الشمس بقليل. المكان: شارع في مدينة الرقة السورية. يبدو منه في خلفية المسرح طرف مسجد. في طرف المسرح الأيمن رجل نائم على الرصيف أمام باب دار، لا يُغطّيه سوى شماخ مرقّط بالأحمر فوق وجهه. ثلاثة رجال قادمون من المسجد يتوقفون عند الرجل النائم)

أبو خالد: يا شباب، من هذا الرجل النائم هنا؟

أبو حسن: دعنا منه، ولننصرف إلى أعمالنا قبل أن تتعطّل.

أبو مصطفى: زوجتي تنتظرني لأحلب الجاموسة.

أبو حسن: أنا سوف أسافر إلى حلب قبل أن تحمرّ عين الشمس.

أبو خالد: وأنا أليس لي عمل؟ الفواكه والخضروات مكوّمة الآن أمام باب الدكان، ولكن لا بد أن نعرف من هذا الرجل النائم هنا.

أبو حسن: الدنيا صيف، يا أبا خالد. إنسان عابر، مسافر ليس له أحد، تعب، فنام. ألا تنام أنت نفسك على الأرض؟

أبو خالد: يا جماعة الخير لا تستعجلوا. قلبي يقول لي: يوجد شيء غريب في هذا الرجل.

أبو مصطفى: أي شيء غريب؟ رجل نعسان، والشمس ما طلعت حتى الآن؟

أبوخالد: صلّوا على النبي. الله يرضى عليكم.

أبو حسن وأبو مصطفى (بصوت واحد) اللهم صلّ على النبي.

أبو خالد: ما رأيكم لو كشفت الشماخ عن وجهه؟

أبو حسن: هل هذا يجوز شرعاً؟ يا رجل؟

أبوخالد: أنا لن أتحرك من هنا حتى أعرف قصة هذا الرجل؟

أبوحسن وأبومصطفى: (بصوتٍ واحدٍ) ونحن لن ندعك تضيّع وقتك.

أبوخالد: ليس في هذا تضييع وقت.

أبو حسن: لا تحشر نفسك فيما لا يعنيك..

أبومصطفى: تسمع ما لا يرضيك

أبوخالد: اللهم صلّ على النبي.

الآخران: اللهم صلّ على النبي.

(يتململ الرجل النائم على صوت الضجة. يحاول النهوض. يقترب منه أبوخالد. يكشف الشماخ عن وجهه. تبدو على أبي خالد ثم على رفيقيه علامات المفاجأة والدهشة. الرجل النائم يفيق. يفرك جفنيه بقوة. يتجه نحو الرجال الثلاثة الواقفين حوله. يتراجع بعضهم).

أبومحمود: السلام عليكم.

(*) أديب وناقد سوري، صدر له عدة دواوين، منها: في غيابة الحب، عودة الغائب، وصدرت له عدة دراسات، منها: الفاصلة في القرآن، في الأدب والأدب الإسلامي، وغيرها.

فجأة تعالى التكبير والتهليل.. ووقفت الشُرطة باهتة!

أبوخالد: (صائحاً) أبو محـ .. م .. ـود؟

أبو محمود: نعم. أبو محمود.

(في هذه اللحظة انفتح باب الدار على مصراعيه. اندفع منه شاب في العشرين من عمره صارخاً...)

محمود: لا إله إلاّ الله. يا ناس، هل قامت القيامة؟

الرجال الثلاثة: لا إله إلاّ الله. محمد رسول الله. أليس هذا أباك يا محمود؟

محمود: (متفرّساً) إي والله هذا أبي. هل هذا معقول؟ (محمود يقبل على والده. يتعانقان)

(الرجال تخلّوا عن ذهولهم أخيراً. شرعوا يسلمون على أبي محمود ويعانقونه. الأولاد تصايحوا حول أبيهم فرحين. النساء زغردن من وراء المسرح. تسامع أهل الرقة بالخبر، فأقبلوا يسلمون على أبي محمود. العيارات النارية شاركت في الفرح).

أبومحمود: (لنفسه) أنا أستغرب والله مما يحدث. كم سافرت قبل هذه المرة، لكنني لم أُستقبَل بمثل هذه الحفاوة والحشود. لا إله إلاّ الله... ماذا جرى لكم يا أهل الرقة؟ ماذا جرى لكم يا أولادي يا أحبابي؟

المشهد الثالث

(الزمان: الوقت نفسه. المكان: باحة دار أبي محمود الواسعة. في صدر الدار الكائن في خلفية المسرح وضعت أرائك. وعلى جانبي المسرح الأيمن والأيسر صفّت كراسي كثيرة. الباحة ملأى بالأقارب والجيران والزائرين. أبو محمود في صدر المجلس يهمّ بالنهوض للقيام بشرف الضيافة. يعترضه بعض الحاضرين)

زائر١: (مجاور لأبي محمود في المجلس) اجلس أنت يا أبا محمود. نحن كلّنا خدّامك.

أبو محمود: أستغفر الله.

زائر٢: (مجاور لأبي محمود على الجهة الأخرى) من أدنى حقوقك علينا أن نسعى على الزائرين ونقوم بخدمتهم.

زائر ٣: (رجل ممن يقومون بخدمة الضيوف، وتوزيع المرطبات) أنت من أولياء الله يا أبا محمود. صلوا يا رجال على النبي المختار.

الحاضرون: اللهم صلّ على سيدنا محمد.

(تعالت الصلوات، وتعالى التهليل والتكبير من جنبات الدار. زغردت العيارات النارية مرّات عدة. رجال الشرطة لا يعترضون).

(أبومحمود يتأمّل ما يجري حوله بسذاجة واستغراب).

أبو محمود: (لنفسه) هل أنا في حُلْمٍ؟ ربّ اجعله خيراً. ربّ اجعله خيراً.

محمود: (في مقدمة المسرح متحدثاً مع بعض الضيوف الذاهلين) طرق والدي الباب بعد منتصف الليل كنت أنا وقتها أغطّ في نوم عميق لا أعلم ماذا يجري. لم تشأ أمي أن توقظني. سألت أمي: من الطارق؟ قال: أنا أبو محمود، يا أم محمود. فعلاً، الصوت لم يكن غريباً على أمي، لكنها لم تصدّق. قالتْ أمي في نفسها: لا بدّ أن هناك لصّاً يريد أن يحتال عليها. وقالت له من وراء الباب: أما تستحيي يا ابن الحرام؟ أبو محمود تحت التراب. إمّا أن تذهب، وإمّا أن أجمع أهل الحارة عليك. سَكَتَ الرجل. قضت أمي الليلة خلف الباب، لا تدري هل هي في حلم أو في يقظة؟ لمّا عرفه الناس، اطمأنت أمي، فأدخلته الدار، وسلّمت عليه مذهولة لا تكاد تصدق عينيها.

زائر١: سبحانك يا ربّ.

زائر٢: سبحان محيي العظام وهي رميم.

زائر٣: هل تصدقون؟ أنا لا أكاد أصدق.

أبو محمود: وأنا كذلك.

(أقبل بعض الناس يحملون الهدايا، ويسلمون على أبي محمود).

زائر٤: (معانقاً أبا محمود) سامحني يا أخي أبا محمود. أنا سامحتك عن كل ما جرى بيننا. أنت رجل صالح تقيّ، وأنا الذي أخطأت معك. لا تؤاخذني. سامحني، يا أخي، سامحني. الله يرضى عليك (يقبله مرة ثانية. يهمّ بتقبيل يديه، فيرفض أبومحمود).

أبو محمود: سامحتك يا أخي منذ اختلفنا. والله سامحتك يا أبا عبدالقادر. وها أنا أسامحك مرة ثانية وثالثة يا أعزّ الأحباب. كيف لا أسامحك يا أخي، أنت جاري وشريكي ورفيق الصبا والشباب؟

زائر٥: (يعانق أبا محمود) سامحني يا أبا محمود.

أبو محمود: سامحتك يا أخي أبا علي. الله يغفر لك ولي وللمسلمين. أنت من أهل المسجد يا أخي. أنا الذي أطلب منك الدعاء والمسامحة. ماذا جرى لي ولكم يا أهل الرقة، حتى تعيدوا الاحتفال بعد مضيّ ثلاثين سنة، كدت أنسى نفسي فيها؟ هل اعتقلت مرة ثانية؟ هل أطلقوا سراحي من جديد؟ لا أدري. هل بلغكم أنني حرّرت بيت المقدس؟ هل أشبعت الجياع، وكسوت العرايا؟ ماذا فعلت يا أهل الرقة؟ يا أحباب.

زائر١: (ممن يخدمون الضيوف) أنت وليّ من أولياء الله يا أبا محمود. صلّ على النبي. صلّوا على النبي المختار يا رجال.

الحاضرون: اللهم صلّ على سيدنا محمد.

أبومحمود: سلّمتُ أمري إلى الله. الحمد لله على كل حال.

زائر٢: حدّثنا عن اعتقالك أيام الفرنسيين.

أبومحمود: (ينهض، يتحدث وهو يتمشى) أنا تحت أمركم. يا مرحبا بالأحباب. في عهد الفرنسيين منذ ثلاثين سنة اعتُقِلتُ (يصمت قليلاً. أهل الدار جميعاً والزائرون يسكتون. يتابع) اعتقلوني مع عدد كبير من السياسيين المجاهدين، ووضعونا في سجن «المية ومية» بلبنان طوال أيام الحرب

العالمية الثانية. كنت أضحك عليهم في نفسي من جهلهم. اعتقلوني وأنا إنسان بسيط، لا أكاد أعرف القراءة والكتابة، تعلمتها على كبر. كنت - والشهادة لله - أكره الفرنسيين والحلفاء، وأميل إلى الأتراك. كنت أتحدى قوانين الاحتلال الفرنسي..

زائر: (مقاطعاً أبا محمود) طيب أبا محمود.

أبومحمود: (متابعاً) كنت أتاجر بأوراق الكتابة، وأقلام الرصاص، والبارود، والأسلحة المهربة. لم يستطيعوا أن يضبطوني مرة واحدة في هذه التجارة الخطرة المحببة، برغم الوشايات وحملات التفتيش. ما أعذبها من لعبة أسهم فيها الشرطة ورجال الأمن الوطنيون، بتحذيراتهم التي تصل إلينا قبل المداهمات بدقائق معدودة تكفي لنقل الأشياء بسرعة إلى مكان آخر.

زائر: طيب يا أبا محمود

أبو محمود: مع ذلك اعتقلوني، ووضعوني في السجن، مع رئيس وزراء أفغانستان، ومع حجاج أتراك، وسياح هنود، وأعضاء مجلس النواب السوري، ومشايخ لبنانيين. أخيراً بعد شهور أفرجوا عني، وعدت إلى الرقة فخرج أهلها على بكرة أبيهم، يستقبلونني ويهنئونني، مثل هذا اليوم، فماذا جرى حتى يعاد الاستقبال؟

زائر: أنت وليّ يا أبا محمود. صلّوا على النبي المختار يا شباب.

الحاضرون: (يرددون الصلاة على النبي) اللهم صلّ على محمد.

زائر: (يوزع كؤوس الماء والمرطبات) زيدوه صلاة.

الحاضرون: اللهم صلّ على سيدنا محمد.

أبوخالد: (نهض يتمشى ويتحدث، كما كان أبو محمود يفعل) اجلس أنت يا أبا محمود في صدر الدار (يجلس أبومحمود) اجلس - أنت متعب رجعت لنا من القبر - أنا أحكي للشباب مغامرتك في قلعة حلب. اسمعوا يا شباب. في إحدى زياراتنا إلى قلعة حلب أيام الصبا... صادف أخونا أبومحمود صندوقاً من حديد يجري على سكة حديدية. اشتهى أبومحمود الركوب في الصندوق. طلب منّا أن ندفع به الصندوق.

حذّرناه من النتيجة المجهولة، فلم يسمع تحذيرنا. انطلقت الدواليب تدور بسرعة هائلة. لأمر يريده الله انقلب به الصندوق قبل الهاوية. نجا من الموت، الحراس الفرنسيون ألقوا عليه القبض وألزموه دفع غرامة مالية. أليس كذلك يا أبا محمود؟

أبومحمود: (ضاحكاً) صدقت. صدقت يا أبا خالد.

أبوحسن: (ينهض حين يجلس أبوخالد) اسمحوا لي أن أحكي حكاية ثانية عن هذا الرجل الصالح، ولا أزكي على الله أحداً، حينما اعتقله الفرنسيون قبل الاستقلال بشهور، خشي أبومحمود فوات وقت الصلاة في إحدى محطّات الاستراحة على طريق السفر. كان الجنود الفرنسيون يمنعون المعتقلين من الاقتراب من ساقية الماء. رفض

سلّمت أمي وهي مذهولة غير مصدقة

أخونا أبومحمود تحذيرات زملائه. هجم فجأة يريد الوضوء، فتلقاه حارس زنجي بسنان البندقية (الحربة) يريد قتله لولا أن صاح به الضابط الفرنسي يزجره في اللحظة الأخيرة، ونجا أبومحمود من موت مؤكد، وأخذ يتوضأ متشفياً من الحارس، حتى جعله يهرب من وجهه.

هل تذكر ذلك يا أبا محمود؟

أبومحمود: (ضاحكاً) نعم. أتذكر يا أبا حسن الحبيب.

أبوحسن: لقد مات من مات من أصدقاء أبي محمود في السجن، أو على الفراش، أو في حوادث الطرق، ومات أبومحمود ولم يمت. لقد أحياه الله بعد موته ليشهد هذا الاحتفال الذي يستحقه. الموت والحياة بيد الله تعالى يا ناس. من لم يمته الله تعالى فلن تقتله شِدّة. ألم تكن تحت التراب قبل ساعات يا أبا محمود؟

أبومحمود: لا لم أكن تحت التراب. بل كنت أنا نائماً فوق التراب.

(يضحك الحاضرون. يتبادلون الابتسامات والتلويح بالأيدي)

أبومصطفى: (مخاطباً شيخاً عالماً جالساً بالقرب من أبي محمود) ما رأيك يا سيدي الشيخ بقصص أخينا أبي محمود العجيبة؟

الشيخ العالم: العلم عند الله. يحضرني يا أبا مصطفى حديث شريف رواه الإمامُ مسلمٌ في صحيحه. قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب. قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون».

الحاضرون: صدق رسول الله. اللهم اجعلنا منهم.

المشهد الرابع

(الزمان: منتصف الليل. المكان: نفس المكان السابق. بعض المصابيح الكهربائية مطفأ وبعضها يومض. الهدوء مخيم بعد انصراف معظم الزوار. لم يبق إلاّ القليل من الأقارب والجيران والأصدقاء يلتفون حول أبي محمود)

أبوخالد: والآن - يا أبا محمود العزيز - لقد انصرف الناس، وهدأت الأصوات، ولم يبق إلاّ نحن، أهلك وأحبابك ننتظر هذه الساعة. نريد أن نسمع منك قصتك الأخيرة. كيف متّ وكيف أحياك الله بعد موتك؟

أبو حسن: أي والله. الله يحيي ويميت، يا أخي.

أبو محمود: أنا أشدّ تلهفاً منكم لسماع القصة، ولفهم الأمور، على الرغم من تعبي الشديد.

أبوخالد: كلنا نؤمن بالحياة بعد الموت، لكننا لا نتوقع حدوث ذلك قبل يوم القيامة، وبعد وفاة الأنبياء والرسل أصحاب

المعجزات، عليهم السلام.

أبومحمود: صدقت. هذا صحيح.

أبوخالد: يا أبا محمود - لا مؤاخذة - لقد دفناك منذ أسبوع، بسبب حادث السيارة الذي أودى بحياتك قرب مدينة حمص، وأنت في طريقك إلى دمشق، فكيف أحياك الله عز وجلّ، بعد موتك، وهو قادر؟

أبومصطفى: وماذا رأيت في الدار الآخرة؟

أبومحمود: (مستغرباً) أنا؟! دفنتموني قبل أسبوع؟

الحاضرون: نعم. نحن دفناك قبل أسبوع.

أبومحمود: لم يحدث لي حادث، كما تتصورون.

أبوخالد: ولو، يا أبا محمود.

أبومحمود: (مؤكداً) ولم أمت.

أبوحسن: ولو، يا أبا محمود.

أبو محمود: ولم أدفن، يا إخوان.

أبوخالد: سبحان الله. لقد أهلت التراب عليك بيدي.

أبومحمود: أنت أهلت التراب عليّ بيديك؟

أبوخالد: نعم

أبوحسن: وأنا حملت نعشك على كتفي.

أبومحمود: أنت حملت نعشي على كتفك؟.

أبوحسن: نعم

أبومحمود: لسنا في وقت مزاح. يا إخوان.

أبوخالد: ومن قال إننا نمزح في هذا الموضوع الخطير، يا أبا محمود؟

أبومحمود: عقلي لا يستوعب ما تقولون. يا إخوان. أنتم عندي صادقون، لكنني أعلم علم اليقين أنني لم أمت.

الحاضرون: نحن نشهد جميعنا بأنك متّ، يا أبا محمود.

أبومحمود: أنا لم أمت، ولو شهد غيرَ ذلك أهلُ الأرض كلُّهم.

الحاضرون: ولو، ولو، يا أبا محمود؟

أبومحمود: ولم أدفن ولو شهد الناسُ كلُّهم، أحياؤهم وأمواتهم.

أبوحسن: لا تغضب، يا أبا محمود. ليس في الأمر مزاح، ولا احتيال.

أبومحمود: أستغفر الله، أنا ما قصدت هذا.

أبوحسن: نحن نعلم أنك ما قصدت هذا ولا غيره.

أبومحمود: لا مؤاخذة، ما تقولونه شيء غريب.

أبوخالد: الله تعالى قادر، يا أبا محمود.

أبومحمود: هل في ذلك شك، يا إخوان؟

أبوخالد: فلماذا تغضب، يا حبيبنا؟

أبومحمود: عقلي، يا إخوان، عقلي لا يستوعب، لا مؤاخذة لا يهضم ما تقولون.

أبومصطفى: فسّر لنا إذا سمحت ما يلي: استلمنا من الشرطة جثتك.

أبومحمود: جثتي؟

أبومصطفى: وهويتك الشخصية.

أبومحمود: هويتي؟

أبومصطفى: ومبلغ ثلاثين ألف ليرة سورية.

أبومحمود: ثلاثين ألف ليرة؟

أبومصطفى: نعم استلمنا النقود التي كانت معك كلها، لم ينقص منها قرش واحد.

أبومحمود(موجهاً خطابه إلى الآخرين) أنتم استلمتم النقود كاملة؟

الحاضرون: نعم

أبومحمود: (بعد صمت وتفكير قليل) يتهلل وجهه بابتسامة عريضة، ويشرق وجهه قائلاً: الآن بدأت أفهم القصة، يا إخوان. لما سافرت من مدينة حلب إلى دمشق، صحبني في السيارة ثلاثة رجال غرباء الأشكال. صاروا يكلمونني من أمامي ومن ورائي وعن شمالي. في حمص حين رجعنا إلى السيارة من الاستراحة تغيب الرجال الغرباء الثلاثة بلا سبب واضح. لم أنتبه وقتها إلى سرقة مالي وهويتي الشخصية إلاّ بعد أن وصلنا إلى مدينة دمشق وبعد أن نزلت من السيارة، وبعد أن ذهب أكثر المسافرين. فتشت هنا. فتشت هنا (يشير بيديه كيف فتش صدره وجيوبه) لم أجد شيئاً. ضربت كفاً بكف. تعبت في البحث عن المال، عن الرجالِ، عمن يعرفهم. لم أقع لهم على أثر، حتى يئست. لم أجد حلاً إلاّ الشكوى إلى الله تعالى. جمعت أجرة العودة إلى الرقة من المحسنين. الله كريم.

صاح الرجل فجأة: من لم يمته الله لن تقتله شدة..

الحاضرون: لا إله إلاّ الله.

أبومحمود: لا أخفي عليكم أنني حزنت على ضياع المبلغ الذي جمعه شركائي بعرق الجبين حلالاً طيباً لشراء سيارة كما تعلمون، لكنني أحتسب ذلك كله عند الله.

أبوخالد: ألم نقل لك إن المبلغ ما ضاع، استلمناه؟

أبومحمود: صحيح، صحيح، تذكرت، بذلت جهدي في جمعه حلالاً وفي حفظه. ماذا بوسعي أن أفعل أكثر مما فعلت؟ لعل الرجل الذي سرق المبلغ ندم على فعلته، فتاب، وألهمه الله أن يرسل المال والهوية.

أبوحسن: أنت طيب القلب، يا أبا محمود، وظنك دائماً بالناس ظن حسن.

أبومحمود: هذا من طيبك.

أبوخالد: الرجل الذي سرق منك المبلغ يمكن أن يكون هو صاحب الجثة المشوهة التي استلمناها، قتل في حادث سيارة ومعه هويتك الشخصية والمبلغ. ظن الشرطة أنه هو صاحب الهوية، فأعادوها مع المبلغ.

أبومحمود: استلمتم جثة مشوهة مع ثلاثين ألف ليرة.

الحاضرون: نعم، بالتمام والكمال.

أبومحمود: لا إله إلاّ الله. قل حسبي الله، وعليه يتوكل المتوكلون.

الحاضرون: لا إله إلاّ الله.

(ستار)